النقد القديم بين النص والمنهج
قراءة في جدلية الخطاب الشعري ومنهج النقد

د/بلوافي حليمة
المركز الجامعي لعين تموشنت

لم يبلغ النقد القديم ذروة نضجه إلا مع حلول القرن الرابع الهجري، حيث واكب حركة شعرية نشطة أحدثت ثورة في المفاهيم القديمة والأصول الأولى التي نظّرت للقول الشعري، ووضعت أسس وقواعد الإبداع الصحيح، والمقبول والذي تتوافر فيه سمات عمود الشعر كما رسمه أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (-370هـ) خاصة في كتابه الموازنة بين الطائيين.

إنّ التغيرات التي طبعت الحياة الاجتماعية في نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي، وعجّلت بنقل الناس من حياة البداوة إلى حياة التمدّن، قد واكبتها تغيرات على مستوى الإبداع الشعري على يد شعراء تمرّدوا على عمود الشعر، وجعلوا القول الشعري مفتوحا على التحديث في أساليبه وطرائقه و في موضوعاته وخصائصه.

ومع خروج بعض الشعراء على سنن الأقدمين كما تبدت في تنظيرات الأصمعي (- 210هـ) و ابن سلام الجمحي (- 232 هـ)ابتداء من القرن الثالث الهجري، فُتِحت مجالات جديدة في النقد لعل أهمها تتبع عثرات الشعراء المحدثين وإحصاء سقطاتهم على مستوى اللفظ المعجمي في علاقته بالمعنى وعلى مستوى التركيب الأسلوبي في علاقته بالقيمة الجمالية لمحمول الخطاب الشعري، وأدى ذلك إلى نشوء احتدام بين المعارضين للتحديث في الشكل الشعري وبين المؤيدين لذلك، كما اتسم النقد في هذه المرحلة بالتجديد في رؤاه التقويمية والتي انجر عنها استحداثُ عُدّةٍ جديدة من المصطلحات النقدية والمفاهيم النظرية نجدها مبثوثة في ثنايا كتب النقد القديم مع ابن قتيبة في الشعر والشعراء، وابن طباطبا في عيار الشعر والجرجاني في دلائل الإعجاز وابن جني في شرح ديوان المتنبي المعروف بالفَسر. وقد نصّب بعض النقاد

أنفسهم للوساطة بين المؤيدين للتحديث والمعارضين كما يتجلى ذلك في الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي عبد العزيز الجرجاني.

ولعل أهم قضيةٍ لفتت اهتمام النقاد قضيةُ الطبع والصنعة، حيث مال المؤيدون للتحديث في الشعر إلى أن الشعر صناعةٌ كباقي الصنائع يتعهّدُه صاحبه بالانتقاء للألفاظ واختيار أنسب التراكيب، وبالتالي فإن الاهتمام بجانب اللغة يمثل أسّ مذهب الصنعة وهو رديف الاهتمام بالشكل، على نقيض مذهب الطبع الذي يميل مناصروه من النقاد إلى تقفي سنن الأولين من الشعراء الفحول والمجيدين في التعبير والإنشاء والتأليف على سمتهم في تشكيل الصور والتعبير عن مشاعر النفوس.

إن النقد العربي القديم بدأ باعتبار المنحى اللغوي العام هو المنفذ لتقويم الشعر، لأن الملكة اللغوية هي زاد الشاعر في الإبداع، أما المعاني فإنها مطروحة في الطريق – كما قال الجاحظ – وقد كان أبو عمرو بن العلاء والأصمعي وبشر بن المعتمر وثعلب من أوائل الذين قدّموا تقويمات انطباعية جزئية للصيغ التركيبية للقول الشعري في زمنهم.

ولقد كانت لصحيفة بشر بن المعتمر (- 210 هـ) الأثر الواضح في وضع طريقا ومنهجا نحو رؤية نقدية للأدب، وذلك من حيث تأسيسها لجملة من المقومات النقدية الخاصة بالقول الأدبي كاستعداد الأديب، وأحوال المخَاطَبين، والأسس الواجب مراعاتها، وهي أقرب إلى التصور البلاغي للقول الأدبي.

أما الأصمعي فقد كان أميل إلى النقد اللغوي، وهو أول من طرح مصطلح " الفحولة " وناقشه من وجهة نظر لغوية ومن حيث توافر المعجم اللفظي اللغوي عند الشاعر وسبقه إلى المعاني. أما ابن سلام الجمحي فقد طرح مصطلح " الطبقات "وذهب به إلى نظرية نقدية تأخذ مبدأ الترتيب وتراكم الإنتاج الشعري كأساس من أسس المفاضلة بين الشعراء. ومع الجاحظ تبلورت مسألة اللفظ والمعنى، وأضحى ميل النقاد واضحا نحو الإعلاء من شأن اللفظ والتركيب وضرورة أن ينتقي المبدع معجمه اللفظي ويتعهد سياقه اللغوي بترتيب عناصره وترصيف أجزائه المقولية.

أما ابن قتيبة فيعدّ استثناء مميزا ضمن نقاد هذه الفترة إذ لم يعتمد على المقاييس الخاصة بالمكان أو الزمان، أو المتعلقة بالشاعر، وإنما من حيث بنية النص وجماليته وطرحه لدلالات جديدة ومعاني مستحدثة.

وقفز النقد العربي القديم مع حلول القرن الرابع الهجري قفزة نوعية بارزة، حيث بدأت تحولات أساسية في مفهوم النقد مع ابن طباطبا في عيار الشعر وقدامة بن جعفر في نقد الشعر، والآمدي في الموازنة وأبو هلال العسكري في الصناعتين والجرجاني في الوساطة والمرزباني في الموشح والأشباه والنظائر للخالديين. .هذه الأقطاب النقدية البارزة في النقد القديم أسهمت بشكل ملفت في بعث حركة نقدية نشطة تأخذ بكل جوانب العمل الأدبي: شعره ونثره، إضافة إلى وضع المصنفات الكبرى الشارحة أو المترجِمة أو المؤرِّخة للآراء "النقدية" في عصور أدبية مختلفة، وكان أبرز تلك المصنفات الشروح التي تناولت الشعر بالتفسير والتعليق والتأويل، وتركت ملامح بارزة لرؤية نقدية مؤسسة على معطيات لغوية وأدبية: فالجرجاني مثلا في الوساطة بين المتني وخصومه لبس عباءة القاضي لفضّ النزاع، وطرح إشكالات تعبيرية تتناول اللفظ في مستواه الافرادي ومستواه التركيبي بينما نجد أبا بكر محمد بن هاشم وأبا عثمان بن سعيد بن هاشم المعروفين بالخالديين يبرزان مبحثا نقديا مهما في تناولهما لقضية السرقات الشعرية واقتربا بها إلى مفهوم تلاقح النصوص أو التناص بالمفهوم الحديث، وبدا قدامة بن جعفر متأثرا بكتاب أرسطو المترجَم - وهو فن الشعر – إذ انتهج أسلوب الموازنة بين النصوص الشعرية واستخلاص ميزات كل منها ثم بيان أسس المفاضلة بينها.

أما مع بداية القرن الخامس الهجري بدأ النقد يأخذ منعطفات أكثر حدّة، إذ تأجّجت الخصومات بين النقاد، وأدى ذلك إلى تكتل هؤلاء النقاد في مجموعات تشترك عموما إما في تهليلها بالتحديث في بنية الشعر أو في تقديسها لعمود الشعر واحترامها لأسس الإنشاء الشعري القديم خاصة عند فحول الشعراء. وقد كان وراء هذا التأجيج في مواقف النقاد خرقُ بعض الشعراء لسنن القول الشعري، وتمردهم على معيارية النقد المتمثلة في عمود الشعر، وتأسيسهم للغة جديدة لا عهد للناس بها و من بين أولئك الشعراء أبو نواس وأبو تمام والشريف الرضيّ والمتني وغيرهم.

ولمّا كان النقد اللغوي القديم يتجه أساسا إلى تقويم الوحدات المعجمية في مستواها التركيبي، فإنه يستند إلى مرجعية نحوية تركيبية تارة ومنطقية دلالية تارة أخرى، وهو يراجع مع كلّ تقويم قواعد القول الشعري كما رُسِمت أصولُها عند الأوّليين من الشعراء، وهذا ما عُرف فيما بعد بـ "الأشباه والنظائر"

والتي ترمي في مجملها إلى إلحاق كل قول شعري في تركيبه و أسلوبه وتعبيره عن المعنى، بشبيه له في شعر الأسبقين. وبرزت كتب الأشباه والنظائر لتعزّز من سلطة عمود الشعر وهي تهدف- فيما تهدف إليه – إلى حفظ الشعر العربي من تيارات التحديث التي في زعمها تذهب كثيرا برونق الشعر وبهائه.

وما كان للنقد القديم أن يتطور ويواكب الإبداع الشعري، لولا ذلك الصراع الذي اشتد بين النقاد حول الحداثة في الشعر، بل إنَّ سلطة الدين والمفاهيم التي أرساها حول الشعر، قد جعلت النقاد منقسمين حول حرية الشعر في اقتحام كلّ الموضوعات الذاتية والمحر عن ذلك مسائلٌ كثيرةٌ كانت محل نقاش وجدال واسعين من قبل نقاد القرن الثاني والثالث الهجريين، ولعل أهم تلك المسائل مسالةُ الصدق والكذبً في الشعر، وما ترتب عن ذلك من مسائل فرعية كالخيال في الشعر وحدوده، والمجاز في التعبير وأدواته.

وكان الانتصار للشعر المحدث، من قبل النقاد القدامى، هو إعلان عن ميلاد أنسجة تعبيرية جديدة وطرائق أسلوبية حديثة في اقتران اللفظ بالمعنى، وبالتالي دخول معجم جديد يقفز على المعجم الشعري القديم، ورؤية أخرى لقواعد التركيب، التمس لها النقاد التأويل المسوّغ لفهمها والذي يجعلها صحيحة سليمة وليست لاحنة مستهجنة، وقد أدى ذلك - حقيقة - إلى حركية علمية أدبية كبيرة أنتجت كتبا نقدية لابن سلام الجمحي والأصمعي وابن طباطبا والجاحظ وابن جني والقاضي الجرجاني وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم، وكل هذه المؤلفات قامت لتناقش مسائل نقدية تخص النظم الجديد في الشعر والقواعد الحديثة التي غدا يتأسس عليها القول الشعري عند أبي تمام والمتنبي والشريف الرضي وغيرهم، ولم تعد تلك القوالب المقولية التي أرساها عمود الشعر ذات سلطة قوية، وإنما غدت قواعدُ جديدةٌ تعطي الحرية للشاعر أن يلوّن تعابيره وأساليبه بتلوينات تركيبية عديدة حتى إن الفرزدق حينما استوقفه الأصمعي في قول شعري له للبس واقع فيه قال قولته المشهورة: علينا أن نقول وعليكم معشر النقاد اللغويين أن تؤوّلوا.

هذا الدرس النقدي اللغوي الناشئ سيفتح مجالات واسعة أمام تنظيرات النقاد، وستطرح إشكالات جديدة حول ماهية الشعر وطبيعته، وحــول (اللحن) الذي صار ظاهرة عند المولدين من الشعراء في العصر العباسي - خاصة - وتلك العلاقة الزمنية والمكانية التي جمعت الشاعر والشارح الناقد وهل هي مسوغ ليطرح الشاعر ما يمليه عليه الشارح من شواهد شعرية تخرج

عن مألوف القول الشعري وتخرق عمود الشعر وما تواضع عليه النقاد والشرّاح من معايير الفحولة الصادقة والجودة الشعرية ؟وهل انكفاء النقاد في فترة ما عن المعنى وتركيزهم على الصناعة اللفظية هو بداية لتأسيس نقد شكلي للنص الشعري ؟

لقد قرر الجاحظ في تناول نقدي لقول شعري أن ركاكة الصياغة هي التي تجعل الشعر مستهجنا ساقطا، وأن حسن السبك وروعة الاختيار وسهولة التوافق بين حروف اللفظ وأصواته وبين صيغة وأخرى في التركيب هو الذي يستحسن الشعر لأجله ويبلغ الكلام مداه من الحسن والجمال. يقول الجاحظ:" **وأنا قد سمعت أبا عمرو، وقد بلغ من استجابته لهذين البيتين ونحن في المسجد يوم الجمعة، أن كلف رجلا حتى أحضر دواة وقرطاسا حتى كتبهما له. وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبدا، ولولا أن أدخل في بعض القيل لزعمت أن ابنه أشعر منه وهما قوله :**

لا تَحسَبَنَّ الموتَ موتَ اليلى وإنَّما الموتُ سؤالُ الرِّجال

كلاهمـــا موتٌ ولـــــكن ذا أقطعُ من ذا لذُلِّ السُّـؤال

وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والكردي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير. "[1]

وقد ذهب الأصمعي إلى هذا المذهب، قبل الجاحظ، حيث كان يميل إلى القول بأن الشعر صناعة لفظية يتعهد فيها الشاعر قوله بحسن الانتقاء ويرمي إلى رفع المعنى الوضيع البسيط إلى أن يصير شريفا قويا باللفظ الجميل، والصياغة المحكمة. يقول قدامة بن جعفر وهو ينقل موقـف الأصمعي :"**سئل الأصمعي من أشعر الناس ؟فقال من يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرا، وإلى الكبير فيجعله بلفظه خسيسا. "**[2] إذن فقد جعل الأصمعي مناط العملية الإبداعية يقوم على أساس معرفة وجوه اللفظ ودلالته على المعنى، فاللفظ الفصيح الدقيق هو الذي يكون معه المعنى فصيحا والدلالة قوية، ولا يتأتى للشاعر أو الكاتب الإتيان باللفظ الفصيح الذي يعلي من مقام المعنى الوضيع، إلا إذا كان له دراية بعلم اللغة وسنن العرب في كلامها، والقدرة على استثمار طاقة اللغة للتعبير عن المعنى

الصحيح. يقول محمد بن احمد بن طباطبا (- 322هـ)مبينا هذه الثـقافة اللازمــة للشاعر :**"وللشعر أدوات يجب إعدادها قبل مرامه وتكلُّفِ نظمه، فمن نقُصت عليه أداة من أدواته لم يكمُل له ما تكلَّفَهُ منه، وبان الخلل فيما ينظمه، ولحقته العيوب من كل جهة، فمنها :التوسُّعُ في علم اللغة، والبراعة في فهم الإعراب، والرواية لفنون الآداب، والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم ومناقبهم ومثالبهم والوقوف على مذاهب العرب في الشعر والتصرف في معانيه في كل فن قالته العرب فيه، وسلوك مناهجها في صفاتها ومخاطباتها وحكاياتها وأمثالها. .."**[3]

أ - النقد القديم والأخلاق :

ومن المسائل التي أثارها النقد القديم، ولقيت صدى لدى الشعراء، مسألة ارتباط الإبداع الشعري بالأخلاق، ولا غرابة في ذلك لأن مناحي الحياة كلها أصبحت تحت سلطة الدين بما في ذلك الشعر، ولم تعد مستساغة تلك المقولة التي تنص على أن أعذب الشعر أكذبه، وطرحت قضية اللين وعلاقتها بانخفاض مستوى الشعر في الفترات المختلفة بدءا بفترة عصر صدر الإسلام، ولم يقف النقاد على أسباب هذا اللين عدا ذكرهم لزهد الشعراء في المواضيع الذاتية. يقول عمرو بن العلاء معلقا على ما أصاب شعر لبيد بن ربيعة من اللين بعد الإسلام :" **ما أحد أحبّ إليّ شعرا من لبيد بن ربيعة لذكره الله عزّ وجلّ ولإسلامه ولذكره الدين والخير ولكن شعره رحى بزر***. "[4]

وهذا الانطباع الذي أبداه عمرو بن العلاء حول شعر لبيد بن ربيعة سيغدو إحدى الركائز الأساسية في بلورة رؤية نقدية في العصر الأول، تتناول علاقة الشعر بالدين، حتى صار اقتران الموضوعات الدينية بالشعر مؤشرا على الضعف الذي سينزل ببنية الشعر وأساليبه. يقول الأصمعي :**"طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام فلما دخل شعره في باب الخير – من مراثي النبي (ص) وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم – لان شعره. وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة، من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار، فإذا أدخلته في باب الخير لان "**[5] واللين الذي يعنيه الأصمعي هو اختيار الشاعر لمعجم شعري رقيق في أصواته، خفيف في جرسه ليناسب رقة الموضوع، وخفة المعنى، وهذه المناسبة يعزوها بعض النقاد إلى أثر البيئة

المعرفية والثقافية في الشاعر المبدع، إذ لا يمكن له إلا أن يكون طرفا متناغما مع طروحات العصر ومقتضياته. وقد يحصل أن تتمدن الحياة الاجتماعية فينتقل الشاعر إلى تمدين معجمه الشعري و عصرنته، ولو على حساب المعطى الفني والبعد الجمالي، وهذا ما لاحظه النقاد القدامى في شعر المخضرمين كحسان بن ثابت والخنساء، اللَّذَين ضعُف شعرُهما بالمقارنة مع ما أبدعوه في العصر الجاهلي.

والحقيقة أن شعر حسان والخنساء ومن أسلم من الشعراء بعد الجاهلية، أصبح ملتزما بالقضية التي من أجلها جاء الدين الجديد، ودخل في معترك الحياة الجديدة ينافح عن الدعوة الإسلامية، ويذود عن حياض الدين بالكلمة الصادقة المؤثرة لا بالبهتان والافتراء، وقول الأراجيف والاختلاقات، فإذا كان قانون الشعر الجاهلي الفني في تحديد قيمته الجمالية هو: أعذب الشعر أكذبه، ولو بطريق المجاز، فإن القانون الجديد الذي أضحى يميز القول هو: أعذب الشعر أصدقه. فالوازع الأخلاقي أضحى رافدا مهما في تحديد وظيفية الشعر في العصر الأول من الإسلام.

وقد اتبع الأصمعي منهج التصنيف تبعا لتخصص الشاعر في غرض معين أو لغلبة هذا الغرض وهيمنته على الأغراض الأخرى يقول في هذا الموضوع :" **ذهب أمية بن أبي الصلت بعامة ذكر الآخرة، وعنترة العبسي بعامة ذكر الحرب، وعمر بن أبي ربيعة بعامة ذكر الشباب.** "[6] والظاهر أن الأصمعي إنما يريد أن يوضح غلبة الاهتمام بالموضوع عند الشاعر، وليس أن الغرض المذكور لا يمكن أن يوجد إلا عند هذا الشاعر أو ذاك. . ولم يكن الأصمعي يخوض في المسائل النحوية المتعلقة بالشواهد الشعرية التي كانت تُعرض للنقاش والجدل حول مستواها التركيبي والصرفي المعجمي. ينقل صاحب كتاب الأمالي ما كان يدور بين اللغويين من تجاذبات لغوية تخص الشعر فيقول: "**كان الكسائي و الأصمعي بحضرة الخليفة هارون الرشيد، وكانا ملازمين له يقيمان بإقامته ويظعنان بظعنه. فأنشد يقول :**

أنى جَزُّوا عامرَ سَوْآى بفِعْلِهِم أمْ كيف يَجْزونَي السَّوآى منَ الحُسْنِ

أَمْ كَيفَ ينفعُ ما تُعْطَى العُلُوقُ بهِ رئمانُ أَنْفٍ إذا مَا ضنَّ باللَبَــنِ

فقال الأصمعي إنما هو رئمان أنف بالنصب، فقال الكسائي :اسكت ما أنت وذاك. يجوز رئمان أنف بالرفع وبالنصب وبالخفض. أما الرفع فعلى الرد على "ما " لأنها في موضع رفع بـ " ينفع " فيصير التقدير: أم كيف ينفع رئمان

أنف. والنصب بـ " تعطى ".والخفض على الرد على " الهاء " التي في "به " قال: فسكت الأصمعي ولم يكن له علم بالعربية، وكان صاحب لغة ولم يكن صاحب إعراب"[7].

إن الذي شحذ همة الشعراء وشجعهم على الخروج عن سمت القصيدة القديمة وقالبها المميز، هو صعوبة تطبيق ذلك القالب بكل أدواته وخصائصه على وقع الحياة الجديدة الذي بدا في تسارع غير معهود، وإن أبدى العلماء وقتذاك امتعاضا من هذا الخروج عن أصالة الشعر العربي، وخشية من أن يقود هذا التجديد إلى ضمور دور الشعر في الحياة السياسية خاصة. يقول حسن عبد الله شرف وهو يعاين هذا التجديد الطارئ على بنية الشعر العربي القديم :" **وكان جيل العلماء بالمرصاد لهذا الإسراف في التجديد، ومجانبة الأصول التقليدية القديمة في صياغة القصيدة وقالبها (...)غير أن الشعراء المولدين – وبعضهم من أصل غير عربي – لم يتقيدوا بهذه القواعد التي وضعها لهم العلماء، وانصرفوا إلى التجديد تلبية لدواعي المعاصرة (...) ولم يحظ الشعر المعاصر برضى النقاد إلا في القرن الرابع للهجرة – العاشر للميلاد – حين أخذ النقد يستسيغ قواعد الشعر الحديثة.** "[8]

ب- النقد القديم و الشعر المحدَث:

وقد كان لزاما على الشعراء المحدثين أن يبنوا نظاما جديدا للشعر يضاهي نظام الحياة من حولهم، والتي بدأت تعنى بالمظاهر الخارجية من زينة وزخرف وتفنن في المسكن والمأكل والملبس، ثم إن هذا التجديد الناشئ لم يكن في الشعر فحسب وإنما شاب كل الفنون النثرية الأخرى مثل المراسلات والخطب والمكاتبات يرصد أبو العباس المبرد (210-286) هذا التحول في الفن ودواعيه فيقول: "**هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين حكيمة مستحسنة يحتاج إليها للتمثل، لأنها أشكل بالدهر، ويستعار من ألفاظها في المخاطبات والخطب والكتب** "[9] ولم يشأ الشعراء المحدثون إتباع سنن الشعر القديم،لأنهم رأوا أن المعجم اللفظي القديم لا يعبر حقيقة عن خوالج النفس ومنعطفات الحياة التي يعيشونها حتى إذا ما انبرى شاعر يريد تمجيد عمود الشعر القديم، ويكتب على نهج القدماء الفحول في ذلك أتت ألفاظه وتراكيبه تشكو الغربة، ويتوارى خلفها المعنى، ويتيه الذهن في الإمساك بالمغزى. يقول المرزباني في ذلك :" **إنها – أي الألفاظ – من الغريب المصدود عنه وليس من المحدثين استعمالها لأنها لا تُجاوَر بأمثالها و لا تَتبع أشكالها. فكأنها تشكو الغربة.** " [10]

وقد استحسن بعض علماء اللغة القدامى الشعر المحدث، واستقر في منطقهم أن الجودة قد تكون في الجديد من الشعر وليست هي لصيقة بالقديم لقدمه، وهذه الجودة إنما يكتسبها الشعر في حسن استغلاله لأبعاد اللفظ المجازية، وقد كانت قضية القديم والمحدث من ضمن القضايا التي أثارت الناس في العصر الأول، ووصلت بهم إلى حد الخصومة، كما يستشف من قول الجاحظ، حيث – في زعمه – لا يخشى في أن يدلي بحكمه في هذه القضية. يقول الجاحظ في كتابه الحيوان :"**والقضية التي لا أحتشم فيها أن عامة شعراء العرب والأعراب، والبدو والحضر، من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة (...) وليس ذلك بواجب في كل ما قالوه، وقد رأيت أناسا منهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها، ولم أر ذلك قط لا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروى، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أي زمان كان.** "[11]

ومع تقادم الزمن، أضحى نقد العلماء للشعر المحدث لا يختلف عن نقدهم للشعر القديم، بل إن الشعر المحدث سينقلب بعد زمن إلى شعر قديم، فابن قتيبة لا يربط جودة الشعر بالزمن وإنما يعلق ذلك باستحسان القول الشعري ذاته، وكسبه لإعجاب الناس. يشرح صاحب كتاب (الشعر والشعراء) هذه الفكرة التي تتطابق مع ما ذهب إليه الجاحظ فيقول :" **فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره، ويذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله. ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثا في عصره وكل شرف خارجية في أوله.** "[12]

وقد انبرى غير واحد من علماء اللغة القدامى ونقاد الشعر إلى بيان طريق الإجادة في الشعر على خطى الفحول من شعراء الجاهلية، ولكن مع مراعاة التحديث الذي يطلبه العصر ويستجيب لأذواق العامة، ويقع من الملوك والأمراء الموقع الحسن، ويكسب مساحة له في دائرة القول الفني. يعدد الأصمعي شروط الإجادة في الشعر فيقول :" **لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي أشعار العرب ويسمع الأخبار، ويعرف المعاني وتدور في مسامعه الألفاظ، وأول ذلك أن يعلم العروض ليكون ميزانا له على قوله، والنحو ليصلح به لسانه وليقيم إعرابه، والنسيب وأيام الناس ليستعين بذلك**

على معرفة المناقب والمثالب وذكرها بمدح أو ذم. "[13] هذه القواعد التي وضعها الأصمعي أضحت، فيما بعد، معيارا لإلحاق الشعر بمصف الفحولة حتى ولو كان شعرا لشعراء متأخرين، وعدنا نجد علماء اللغة ممن تصدوا للشعر المحدث نقدا أو شرحا لا يرون غضاضة في إفساح المجال لهذا الشعر أن يتطور وأن يبلغ المستوى الذي يستحقه خاصة في جودة الصياغة اللفظية، وقد وضع ابن المعتز (296) في كتابه " البديع " الشعراء المحدثين إلى جنب الشعراء القدامى في حديثه عن ظاهرة أسلوب البديع يقول حسن عبد الله شرف في ذلك :" **ولم يشكل علماء اللغة عائقا على طريق تطوير الشعر العربي بالقدر الذي يمنع هذا الشعر من التطور (...) ولم تجر لغة الشعر الجديد بحرية وقوة إلا بعد ثلاثة أجيال تقريبا. وذلك في زمن ابن المعتز الذي أخذ يسوي بين الشعراء القدامى والمحدثين في البديع.** "[14] ولعل ثمة سبب آخر كان يصرف النقاد اللغويين إلى عرض الشعر القديم، وتبيان سقطاته على مستوى الصياغة وتأدية الدلالة، وهو مرمى لا يبتغون من ورائه سوى البحث عن تعليلات لغوية لظواهر نحوية أو عروضية، وكان استعذاب أبيات شعرية من مدونة الشعر الجاهلي – مثلا – ليس إلا من باب الانتقال إلى استنباط قاعدة في النحو أو ملمحا في العروض أو بديعة في اللغة، من اشتقاق ومعرفة أصل اللفظ وما إلى ذلك. يقول حسن عبد الله شرف في ذلك :" **والواقع أن علماء اللغة والنحو أخذوا يتتبعون كلام العرب ليستنبطوا منه قواعد النحو أو وجوه الاشتقاق أو الأوزان التي جرى الشعر عليها، ودفعهم هذا إلى نقد الشعر من حيث مخالفته للأصول التي هداهم استقراؤهم إليها في إعراب أو وزن أو قافية، وليس من حيث عذوبته، ورقته، وجماله الفني، فراحوا يستظهرون ما وقع فيه شعراء الجاهلية من الخطأ في هذه النواحي. وكذلك ما وقع فيه بعض الشعراء المسلمين من الخطأ أيضا.** "[15]

جـ – النقد القديم والصياغة اللفظية:

والجانب الشكلي في الشعر، من ألفاظ وصيغ تعبيرية وأساليب بيانية، أخذ من اهتمام النقاد القدامى حتى أنهم كانوا لا يعتبرون التجويد إلا في الألفاظ، ولا يستصاغ الشعر إلا إذا كان ذا رونق في مبانيه، وتعهده صاحبه في مطالعه ومقاطعه، وليس الشعر فقط من يحظى بهذه الرعاية، ويحيطه متعهده بالمراجعة والتجويد، بل فنون الأدب الأخرى التي تتقاطع مع الشعر في الصناعة وحسن التأنق في انتقاء اللفظ. يقول أبو هلال العسكري في ذلك :"

ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة والأشعار الرائقة ما عملت لإفهام المعاني فقط لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيدة منها في الأفهام، وإنما يدل حسن الكلام وأحكام صنعته ورونق ألفاظه وجودة مطالعه وحسن مقاطعه وبديع مباديه وغريب مبانيه على فصل قائله وفهم منشئه. وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني "[16]

ويسوق أبو هلال العسكري نماذج شعرية ليدلل على وجاهة مذهبه المنتصر إلى أن الجودة في الشعر إنما مردها إلى التجويد اللفظي والاهتمام بالشكل العام للنص. يقول موضحا :" **ودليل آخر أن الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا، وسلسا سهلا ومعناه وسطا، دخل في حملة الجيد وجرى مع الرائع النادر، كقول الشاعر :**

ولمّا قضينا من منن كل حاجة * ومسّح بالأركان من هو مــاسح
وشدّت على هدب المهارى رحالنا* ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا * وسالت بأعناق المطيّ الأباطح
وليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى وهي رائقة معجبة..." [17]

هذه المفاهيم النقدية التي تعطي الأفضلية للشكل على حساب المضمون، هي التي سوف تنتج اتجاها في النقد القديم يهتم بجانب اللغة في تمظهراتها المختلفة، ويطرح في سبيل تناول هذا الجانب عدة قضايا تتعلق بالطبع والصنعة، والأصالة في اللفظ والحداثة، والسرقة في المعنى دون اللفظ، وضرورات الشعر وهامش انتهاكه للقاعدة النحوية لتحقيق النظم العروضي، وغير ذلك من المسائل التي أفاض فيها علماء اللغة الذين تناولوا الأخطاء الشعرية في معرض تقعيدهم النحوي وبحثهم عن مسوغات من فصيح الشعر القديم خدمة لتأويل أو إسنادا لمذهب نحوي أو فقهي يستخلص ابن قتيبة خصائص الشاعر المطبوع من خلال استقرائه للشعر الجاهلي فيقول :" **والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي وأراك في صدر بيته عجزه وفي فاتحته قافيته، وتبيّنت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحّر** "[18] فالملاحظ أن ابن قتيبة كان لا يرى الطبع إلا في تجويد الشكل فأتت الأوزان تطاوعه، وتسابقت الألفاظ لتفصح عن بعضها البعض لحسن تجاورها وتحقيقها للانسجام المنشود، أما ما سوى ذلك فيعتبر غريبا غربة الألفاظ المتنافرة التي تحدث بشأنها المرزباني* بل إن الجاحظ في لحاته

الدقيقة يقيم جودة الشعر على الصياغة اللفظية، ويؤسس عليها الطبيعة التعبيرية في المنظوم التي تأبى أن تحافظ على خصائصها إذا ما تعرضت للترجمة أو النقل، لأن ذلك يتسبب في ذهاب النظم الذي هو عمود المقول الشعري. يقول الجاحظ :**"والشعر لا يستطاع أن يترجم ولا يجوز عليه النقل ومتى حوّل تقطع نظمه وبطل وزنه وذهب حسنه وسقط موضع التعجب، فالكلام المنثور المبتدأ على ذلك أحسن وأوقع من المنثور الذي تحول عــن موزون الشعر.** "[19]

ولأن عماد التقويم اللغوي للشعر هو النظر في معجمه اللفظي وتتبع سياقاته الأسلوبية، فإن معظم من تناول الشعر القديم، من اللغويين والبلاغيين والنحاة، بالدراسة، إنما كان يبتغي بيان حسن الكلام ووجوه التعبير عن المعنى بشكل يجمع بين بلاغة الأداء وفصاحة اللفظ من جهة وبين شرف المعنى وجدّته من جهة أخرى يقول محمد زكي العشماوي :**"إن الذي قامت على أكتافهم الدراسات النقدية والبلاغية طائفتان: طائفة انقاد الغويين، وطائفة النقاد المتأثرين بالمنطق والفلسفة من أمثال قدامة بن جعفر، وكلا الطائفتان تدين بمبدأ المحافظة، وتستمد مناهجها من طبيعة المذهب العلمي** "[20].إن الاهتمام بالشكل وإيلاء اللفظ العناية الكبرى، أدى إلى ازدهار النقد اللغوي الذي تناول البنية التركيبية والبنية المعجمية بمقاييس نحوية وبلاغية ومنطقية، وهو ما سينتج عنه التأسيس النظري للنقد اللغوي على يد المتأخرين من شراح الدواوين والواضعين للموسوعات الأدبية والرسائل في القرنين الرابع والخامس الهجريين.

والملاحظ، أن التقويم للشعر بدأ وصفيا انطباعيا مع الأصمعي وعمرو بن العلاء النحوي مع استنباطات لمعطيات لغوية وبيان وجه التأويل النحوي فيها [21]، ثم تدرج إلى أن أضحى تعليليا موازنا بين المقول الشعري وبين ما كان ينبغي أن يقال باستبدال لفظ مكان آخر، أو تعبير بدل آخر في البيت الشعري، وذلك مع ابن طباطبا والجاحظ وابن المعتز. حتى إذا ما استوى النظر النقدي في المسائل اللغوية المتعلقة بالشعر، وحصل تراكم معرفي وتشكلت عُدّة النقد الأولية مع توافر مرجعية في ذلك متمثلة في ما خلفه الأولون من تقويمات للشعر الجاهلي،خاصة، مال الجهد النقدي في أواخر القرن الرابع الهجري إلى التنظير المعياري والتأليف في مسائل فرعية تخص اللغة والبلاغة والعروض والنحو، فكان كتاب الموشّح للمرزباني، ودلائل الإعجاز للجرجاني، وكتاب

الصناعتين –الكتابة والشعر- لأبي هلال العسكري، والصاحي في فقه اللغة لابن فارس، وكتب المساوئ، أولها رسالة في مساوئ شعر المتنبي للصاحب بن عباد، وما إلى ذلك من التآليف التي لا تنقطع عن معاينة الشعر، وإبراز ما يحتويه من درر التعبير الفصيح، ونماذج للقول البلاغي المؤثر، وكذلك ما حواه من أخطاء في توظيف اللفظ أو التعبير عن المعنى، فليست تلك المؤلفات الجامعة إلا استخلاص لتلك الوقفات النقدية التي شكلت فتحا جديدا في مجال تقويم العمل الأدبي، ووضع أطر عامة للتعامل مع النص في شموليته، وسنعرض - هاهنا – لأعلام النقد الذين شكلت مساهماتهم دفعا كبيرا في سبيل بلورة رؤية نقدية تأخذ النص الشعري - خاصة – في كل أبعاده.

هوامش البحث :

[1] الجاحظ (عمرو بن بحر)كتاب الحيوان: تحقيق عبد السلام هارون ج3 ص40 دار إحياء التراث العربي –بيروت 1987

[2] قدامة بن جعفر: نقد الشعر :تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي –ص101 دار الكتب العلمية-بيروت 1984

[3] ابن طباطبا: عيار الشعر ص6 تحقيق عبد العزيز نادر المانع –منشورات اتحاد الكتاب العرب –دمشق.

*- رحى بزر: جعجعة وطنين.

[4] أبو عبيد الله المرزباني:كتاب الموشح ص126 تحقيق علي محمد البجاوي – دار الكتب العلمية – بيروت 1985

[5] المصدر السابق ص85-90.

[6] الأصمعي: فحولة الشعراء ص87 تقديم صلاح الدين المنجد :ط 1971 – دار الكتاب الجديد –القاهرة

[7] حسن عبد الله شرف :النقد في العصر الوسيط والمصطلح في طبقات ابن سلام ص 24،25 ط1 1984دار الحداثة –بيروت – لبنان

[8] أبو العباس المبرد: الكامل في اللغة والأدب ج2ص1 تحقيق عبد العزيز الميمني – ط3 - القاهرة -1978

[9] المرزباني: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراءص472 – دا ر الكتب العلمية – 1977- بيروت

[10] الحيوان ج2 ص27.

[11] الشعر والشعراء ص10-11.

[12] الأصمعي: فحولة الشعراء ص 124.

[13] حسن عبد الله شرف: النقد في العصر الوسيط والمصطلح في طبقات ابن سلام ص25.

[14] المرجع السابق ص67.

[15] ابن رشيق القيرواني :كتاب الصناعتين الكتابة والشعر:ص73-تح :مفيد قمحة- دار الكتب العلمية –ط2-1989-بيروت

[16] المصدر السابق ص73

[17] ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص34.

* في نص سابق ص 17.

[18] الجاحظ :البيان والتبيين ج1ص295.

[19] محمد زكي العشماوي :قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ص 247 – دار النهضة العربية – بيروت 1984

[20] مصطفى عبد الرحمن إبراهيم :في النقد الأدبي القديم عند العرب ص120- مكة للطباعة - 1998-

[21] أنظر ذلك في: دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص85- طبعة موفم للطباعة والنشر – الجزائر، وفي الموشح للمرزباني ص167.وفي كتاب الصاحبي لابن فارس ص187.، دار النهضة العلمية -بيروت 1984- وفي كتاب رسالة في مساوئ شعر المتنبي للصاحب بن عباد – دارإحياء التراث العربي – بيروت -1982.